



أحد أصدقائي القدامى تغير على أو تغيرت عليه، ولعل كلامنا تغير على الآخر فصار يتحاشى مصافحتي!

لعله مجتهد مأجور ولو أخطأ!

وهجر المخالف مسألة فقهية مبسوطة في ثنايا كتب العلماء، وأطال فيها النفس "ابن تيمية"، وصنف فيها علماء من أمثال العلامة "بكر أبوزيد" رحمه الله.

والذي يظهر لي أن الهجر باب المصلحة؛ سواء كانت التأديب أو ردع المخطئ أو منع انتشار الانحراف ..

فحين لا يكون ثم مصلحة من الهجر فإنه يرجع إلى أصل الحكم وهو المنع والترحيم، «وَلَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرْ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثِ لَيَالٍ»، ومن حق المسلم على أخيه رد السلام، وتشميته العاطس.. إلخ

ولم يثبت في الشرع - فيما أعلم - هجر الكافر؛ سواء كان وثنياً أو كتابياً، ولا المنافق.

تكمن الخطورة حين أستشعر أنني أفضل من الآخرين وأطهر، أو أعتقد أنهم رجس من عمل الشيطان لا ينبغي أن أمسهم فأتلوا بهم، وهذا شعور قد يلقيه الشيطان على المؤمن أو توسوس به النفس الأمارة بالسوء.

وهنا يصبح الحجاب الذي ضربته بيني وبين أخي المؤمن حجاباً عن الله، ولذا ورد من المغفرة عن المتشاحنين إذا كان تشاحنهم لأمر دنيوي، ومن باب أولى إن كان على سبيل الاستعلاء، والاستكبار، واحتقار الآخرين، واستبطان طهورية النفس وسموها عن فلان وفلان.

وما أدق مسارب التعااظم الخفية حتى حين يلبس المرء الصوف، ويقنع باليسير من الطعام، ويجاهد نفسه في ميادين كثيرة، ولكنها تتغلب عليه في باب من الأبواب فتضدره إلا من عصم الله ورحم.

ولذا كان من دعاء الصالحين: اللهم لا تكلي إلى نفسي طرفة عين.

ويطرد هذا في عموم أبواب الدعوة في العمليات والفرعيات، فهو مducta أن يشعر الداعية أو المحتسب بتفوقه على الآخر فبلغ عليه حظ النفس، وقد يبدأ العمل بنية حسنة ثم يطأ ما يغيرها، وخاصة إذا عرف بهذا واشتهر، فيفضي الأمر إلى اعتقاد نبل النفس وأصطفائها، وأن الناس قد خلطوا وغيروا وبذلوا وأثروا الحياة الدنيا وأنت أنت!

وهذا ليس مducta للقعود وترك الدعوة والحسبة بل لمجاهدة النفس والتيقظ لدوافعها الخفية، والانكسار بين يدي الله؛ لأنَّ افتقاراً واضطراراً، والحدُّر من الغفلة عن تهذيب النفوس وإلجامها بزمام المراقبة والخوف من طغيانها.

وربما غفل المرء عن ذاته فتحول الباب عنده إلى نوع من الرياء والسمعة..

و هنا معنى لطيف تحسن الإشارة إليه في التفريقي بين مقصود شريف وآخر مذموم.. حين دعا إبراهيم ربِّه: {وَاجْعَلْ لِي لِساناً صِدِّيقاً فِي الْآخِرِينَ} (الشعراء، 84)، كان معبراً عن احترام الصدق وتعظيمه، وتقدير الصادقين، وحب الانضمام في سلكهم.. فمن حقنا إذاً أن نحب الصفات الجميلة وأهلها، وأن نعرف بها بين الناس.

هذا لون ونمط رباني كريم يقابله أولئك الذين يحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا، وأن يمدحوا بالصفات الحسنة؛ لتسويق أنفسهم عند الناس، وهو في قراره نفوسهم لا يحبون تلك الصفات ولا يحاولونها، ولكنهم يتزينون بها أمام الملائكة؛ حفظاً لجاههم الاجتماعي، ومكانتهم، ووظيفتهم العاجلة.

إنهم العبيد الأقنان؛ الذين جمعوا بين المهانة والحقارة، وبين الدوران والتمحور حول الذات وجلب مصالحها العاجلة، وربما رأوا في تلونهم وخداعهم ذكاءً وفطنة ووصولية يعجز عنها غيرهم، وهو أحق الناس بوصف القرآن: {لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعُلُوا فَلَا تَحْسِبَنَّهُمْ بِمِقَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} (آل عمران، 188)

ما أعظم الفرق بين المهانة وبين ما يسميه أهل السلوك (تصفيير الذات)، ويعنون به: الانعتاق من سلطة النفس ورؤيتها صفرًا، وبعضهم يقول: رؤيتها صفرًا عربياً كالنقطة، وليس صفرًا إنجليزياً يشبه الرقم خمسة!

وذلك مبالغة منهم في دحر الأنانية، والخلاص من سطوطها، والتجدد التام منها أو محاولة التجدد..

ولذا يقول عبد القادر الجيلاني: كن مع الحق بلا خلقٍ. ومع الخلق بلا نفسٍ.

فَمَا أَجَلَ هَاتَيْنِ الْكَلِمَتَيْنِ وَمَا أَجْمَعَهُمَا لِقَوَاعِدِ السُّلُوكِ وَلِكُلِّ خُلُقٍ جَمِيلٍ فَمَتَى عَزَّلَتِ الْخُلُقَ - حَالَ كَوْنِكَ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى - وَعَزَّلَتِ النَّفْسَ - حَالَ كَوْنِكَ مَعَ الْخُلُقِ - فَقَدْ فُزِّتَ بِكُلِّ مَا أَشَارَ إِلَيْهِ الْقَوْمُ. وَشَمَرُوا إِلَيْهِ. وَحَامُوا حَوْلَهُ.